للعلم والتاريخ

٢ ـ عبد القادر حمزة باشا

وما ذكره عنه الذاكرون في حفلة التأبين

[« قومية » بحثه وراء « الحقيقة »
في التاريخ المصري القديم ..]

للأستاذ محمد السوادي

إحتفل أهل الرأي وذوو المكانة وأبناء الفكر في عاصمة مصر بتأبين الفقيد من أيام ، فرددت جنبات القاعة الثقافية التذكارية في الجامعة الأمريكية مواهب الراحل ومناقبه ، جرت نثراً على ألسنة هيكل ومنصور فهمي وأباظة وآخرين ، وجرت شعراً على ألسنة العقاد ومطران وعرم وآخرين

ومن الرابع عشر من هذا الشهر تحتفل أسرة الفقيد بإحياء ليلة الأربعين ، فيذكر الذاكرون أن أربعين يوماً مرت على آخر عهد لمصر بابنها « الممتاز » الذي وقف عليها ما أوتي من جهود ، وسخر في سبيلها ما آتاه الله من فضل وفن ومميزات رقت به إلى مستوى فريد ومقام ملحوظ

وأحب بدوري أن أختار هاتين اللامعتين — التأبين والأربعين — لأثير ناحية من أدب الفقيد تغني وما ذكره الذاكرون من الشعراء والناثرين ، فقد ذكروا الخدمات التي أداها عبد القادر حمزة لمصر التي أحبها فعاش لها ، مصر الحديثة في جهاده السياسي والصحفي والأدبي ، ومصر القديمة التي بعثها بعثاً رائعاً في كتابه « على هامش التاريخ المصري القديم » . هذه الناحية التي أحب اليوم أن أعزوها أو أجلوها هي « قومية البحث عند عبد القادر حمزة وراء الحقيقة في التاريخ المصري القديم »

* * *

وأحب أيضاً أن أسجل أسفي على فقر مصر الحديثة من ناحية المؤسسات العلمية التي تفزع إليها الأمم الناهضة لتقدر القيم العلمية لجهود الأفراد قدرها الحق ؛ ولو أن مصر كانت مثرية في هذه الناحية ثراء الأمريكيين والأوربيين ، لهبت هذه المؤسسات إثر وفاة العظيم تتناول مخلفاته بالبحث ولرأينا الجمعيات التاريخية تتوفر على الجانب التاريخي منها فتجلوه . الحاضرون من أعضاء المؤسسة بمحاضراتهم ، والباحثون بالكتب التي يصدرونها بسطاً لهذه الجهود وتأييداً أو تفنيداً ، أما وقصارى جهدنا أن يجتمع بعض الناهضين — واجتماعهم مشكور لهم ومحمود — لتأبين العظيم الراحل ، فنصور من ناحية النهضة

كثيراً من تقلبات القدر الكبرى !
لقد قدُمَ الدورُ ، والإنسان الجامد في غفلة

* * *

أيقظنا أيها الإله العظيم ، أوح وبدّل العالم ،
أسمع العدَم كلمتك الثمرة
لقد آن الأوان ، فانهض وتجاوز هذا الهدوء الطويل
اخلق ظلاً آخر من هذا الفضاء الآخر .
إن أعيننا الناقلة لتفتقر إلى مشاهد أخرى
وإنّ نفوسنا الشاردة لتحتاج إلى معجزات أخرى
بدل نظام السموات التي لم تعد تحدثنا !
واقذف بشمس أخرى لأعيننا الحائرة
حطم هذا القصر القديم غير الجدير بعظمتك ،
أقبل ، وتجل أنت ـ أنت سبحانك ـ واحملنا على أن نؤمن
ولكن ربما قبل الأوان حيث في مجاري السموات
ستكف الشمس عن إنارة الوجود
ومن هذه الشمس المنوية (الايمان) قد انكسف الضوء .
وسيكف رويداً رويداً عن إنارة التفكير ،
واليوم الذي سيغدو فيه هذا المصباح محطماً
سيُغمس العالم في ليل أبدي !
إذن أنت ستحطم ما خلقت .
وهذا الحطام النهار سيردد عنك جيلاً بعد جيل :
(إنني الوحيد ! وكل ما عداني لا يستطيع الدوام !
فالإنسان الذي ينقطع عن الايمان ، ينقطع عن البقاء !)

(الأسكندرية) محمد أسعد ولاية

العلمية خاصة والفكرية عامة يثير الأسف، ويبيح للناقد أن يلقى المسؤلية على الدولة ورجال الفكر أنفسهم

وهذه الناحية التي وقع عليها اختياري لتكون موضوع مقالي، هي الناحية التي كنت أود لو كانت من نصيب أساتذة النقد والتاريخ في إحدى المؤسسات العلمية، لأنها ناحية لها من الجلال والقيم ما ينوء به كاهلي وتنوء به جهودي

ولكني سأحاول:

و« القومية » في البحث، تنقص من ناحية وكمال من ناحية: تنقص من ناحية « الحقيقة » العلمية والتاريخية، لأنها - أي القومية - لون من ألوان التعصب يجافي أهداف الباحث وراء « الحقيقة » في ذاتها ولذاتها، وكمال من ناحية « الوطنية » التي تطالبنا بتغليب الصالح الوطني في النهاية، والشعور العاطفي في التحايل على إدراك هذه الغاية

وإذن « القومية » ليست لها قيمة ثابتة، وإنما تختلف قيمتها باختلاف وجهة النظر إليها

و« الحقيقة » نفسها لها ميزاتها ولها مساوئها، أما الميزات فتنحصر في القداسة التي تحوط الباحث، وفي الجمال الذي يحيط اللثام عنه يوم يدرك هذه « الحقيقة »، وفي الجلال الذي يشعر به يوم يرى نفسه وقد تجرد من كل تأثر شخصي أو عائلي أو قومي فأخذ مكانه فوق المستوى المادي وتطلعت الإنسانية المشوقة إلى الحقائق إلى حيث يقيم هذا الباحث داخل برجه العاجي. وأما مساوىء هذه الحقيقة فتنحصر في مرارتها وأثر هذه المرارة في الجماعة التي ينتمي إليها الباحث، وضرر هذه المرارة بالوطن أو بالأفراد أو بالباحث نفسه. وحسبك أن تتصور نفسك الآن وقد جاءت أمتك حكومة وشعباً بالحقائق العارية فنشرت كتاباً ضمنته نقائصهم أفراداً وجماعة كما تعرفها أنت وكما أعرفها أنا، ثم تتصور نفسك وقد استأنك الجند إلى المحقق وزج بك المحقق في السجن، واستنكر تصرفك الرأي العام، واتهمك بالمروق من دين الوطنية كل وطني

من هذا ترى أن « القومية » تنقص من بعض النواحي، و « الحقيقة » نفسها مريرة ولا أقول « تنقص » من بعض النواحي، فإذا وجد الرجل الذي يجد في البحث وراء « الحقيقة » خالصة ليريح جلالها وليبرز جمالها وليساهم بهذا الجهد في الترقي الإنساني، ثم استطاع هذا الرجل أن يخرج بنتيجة « تطبيقية سليمة » من الناحية العلمية ومؤدية إلى خدمة بلاده، ثم تبين أن « القومية » هي التي دفعت به من البداية إلى هذا البحث الذي التزم فيه جادة الحق وصادق النهج، فمن حقه على بلاده أولاً وعلى الإنسانية ثانياً أن يأخذ مكانه بين الخالدين

وأنا مؤمن بأن عبد القادر حمزة كان « هذا الرجل » . . . في كتابه الأخير

ويحضرني الآن لإيضاح الفكرة مثل أضربه لها من « القومية » في « الفلسفة الوطنية الاشتراكية » في « ألمانيا النازية » فقد وضع « روزنبرج » وغيره من فلاسفة العنصرية الآرية مجلدات ضخمة سخروا فيها العلم لإثبات أن الجنس الآري سيد هذه الدنيا، وأعداد « الرسالة » الفائتة تتضمن بحوثاً طلية في فلسفة هذه « الوطنية الاشتراكية » وكلها توهم بأن أصحابها إنما يبحثون وراء « الحقيقة » فهل يمكن القول بأن هذه البحوث من النوع الذي نعنيه بـ « قومية البحث وراء الحقيقة » ؟

كلا . . . إنما حشد هؤلاء الفلاسفة « معلوماتهم » وجندوا « مواهبهم » لإخفاء وجه « الحقيقة » لا لاجتلائه، ولتسخير هذه « المواهب والمعلومات » في إلباس الباطل ثوب الحق، وفي استخدام الحد الثاني من سلاح المنطق، وفي ارتداء أزياء الفلاسفة وهم في حقيقتهم دعاة سياسيون، ولتضليل « الفكر » بإقناع « المفكرين » بصواب ما تذهب إليه « العنصرية الآرية »

هؤلاء هم أعداء « الحقيقة » وأعداء المعنى الذي نعنيه ونحن نقصد إلى أصدقاء « الحقيقة » ونرمي إلى التدليل على أن « عبد القادر حمزه » المصري أحد هؤلاء الأصدقاء

* * *

نريد أن ندلل الآن على ثلاثة أمور:

أولها: أن عبد القادر حمزه إنما اتجه إلى دراسة « التاريخ المصري القديم » بحثاً وراء « الحقيقة » في ذاتها ولذاتها كما اتجه « أبناء هذه الحقيقة » في مختلف العصور

ثانيها : أن هذه الدراسة ملأته ـ كمصري ـ زهواً بمصريته فكان هذا الشعور منه إيماناً بالقومية التي خالفته في بحثه

ثالثها : أن عبد القادر حمزة « مؤلف كتاب على هامش التاريخ المصري القديم » قرن بين الحقيقة والقومية فجمع بينهما جمعاً عادلاً ولم يغلب القومية على الحقيقة وإنما وجد في إبراز هذه الحقيقة إثباتاً لهذه القومية فقط

هذه هي الأمور الثلاثة التي أريد أن أدلل على صحتها لأخرج منها بنتيجة تعزز موضوع هذا البحث

* * *

ولأعد بالقارئ إلى الكلمة التي تدم بها الفقيد للجزء الأول من كتابه لنستمع إليه وهو يقص علينا بداية شغفه بدراسة التاريخ المصري القديم فنرى أنه زار الأقصر في سنة ١٩٢٤ ليشاهد قبر الملك « توت عنخ أمون » فزار قبور وادي الملوك والملكات والدير البحري ومعبد الكرنك ووقع في يده كتاب « طيبه Thêbes » للأستاذ كابار Capart مدير معهد الآثار المصرية في بروكسل فقرأه فخيل إليه أن الآثار التي مر بها مرور الطير أخذت تتجسم وأن الحياة أخذت تدب فيها فحفزه هذا إلى زيارة الأقصر مرة أخرى زيارة مشوق إلى الحقيقة وأصبح « يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفاً بعصر القديمة فأحسست رغبة قوية في زيارة المتحف المصري ، مع أنني كنت قد زرته من قبل مرتين فجعلت أزوره من جديد زيارات كان لها في نفسي معنى جديد »

هكذا كانت البداية ، بداية رجل شغفته آثار مصر القديمة حباً فرغب في دراستها ، والبحث عن وجه « الحقيقة » فيها

فمتى إذن انتقل به البحث إلى « القومية » ، أو متى تسلطت على دراساته « قومية البحث » ؟

يجيبك هو على هذا السؤال فيقول :

« وتكررت زياراتي للآثار وانكببت على المؤلفات التي وضعها علماء المصرولوجيا ، فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر في عيني وكأني أمتلئ بذلك زهواً »

من هنا بدأت بذور القومية تنمو في نفس الرجل ، ولكن هذا النمو في « البذور » يحتاج إلى كثير من « الماء » و « السماد » ليستقيم العود ويبسق فارعاً في الفضاء ... فما كان ماؤه وما كان سماده ؟ كان لا بد للرجل من « الغضب » ليكون « تعصب » ولتكون « حماسة » وليكون « إصرار » على إبراز فضائل مصر . . . وقد « غضب » الرجل الذي لا يغضب غضباً ظاهراً ، واستبنا منه هذا الغضب من خلال قوله :

« وأخذتني الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذي يعرفه الأجانب ، ولا نعجب بها هذا الإعجاب الذي يبذله لها الأجانب ، ولا نغرم بمجدها ونتقصى خفاياه هذا الإغرام الذي يقبل عليه ويرتاح له الأجانب »

من العبارات السابقة وضحت القومية ؛ ولكن العبارة الأخيرة توضح حالة الاقتران بين « القومية » و « الحقيقة » أو مطالع هذا الاقتران ، لأنه لم يقل أنه عجب — أو غضب — فحسب ، ولكنه اعتزم البحث وراء هذا المجد و « تقصي خفاياه » والتقصي — علمياً — هو لباب البحث وراء « الحقيقة »

وبدأ الرجل يقرأ مختلف المؤلفات مرات ومرات ، فكان يفهم في المرة الثانية ما يبهم عليه في الأولى ، وينفذ في الثالثة إلى ما يغيب عنه في الثانية . وانقضت سنوات حتى اختمرت الدراسات في ذهن هذا « الباحث المنطقي المرتب » ، وبدأت « النتائج » تطل من « المقدمات » على الصور التي انحاز بها ذهنه في استخلاص الحقائق . . . هذه الصور التي رددتها إلى عناصرها في بحث لي نشرته مجلة « الثقافة » الغراء

وبدأ الرجل تجربته الأولى بنشر فصول في « البلاغ » في سنة ١٩٣٤ ، وتجربته الثانية بنشر فصول أخرى في سنة ١٩٣٨ وأخيراً رأى أن يخرج كتابه الأخير

وهو لم يقل أنه أدى لتاريخ مصر القديم كل حقه ، بل اعترف بأن هذا التاريخ بحر خضم ولم يسمه هذا الوصف إنشاء أو إسرافاً في الإنشاء كما ألفنا نحن الكتاب ، بل عقب على الوصف بما يثبته فقال : « لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة أو أكثر فليس يوفى حقه في كتاب ولا في كتب ، وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية في سنة ١٨٢٢ م مئات من

الكتب ، وهم إلى اليوم كلما كتب واحد منهم وجد جديداً ، وكلما ضربت فأسه فى أديم مصر خرجت بجديد ، فلا مناص من أن أكتفى فى كتابى هنا بأطراف ، وإذا أراد الله فسأتبع هذه الأطراف بأطراف وأطراف » . ولكن الله لم يرد ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

وأدع الآن مهمة « التطبيق » إلى المقال الآتى إن شاء الله وأختم مقال اليوم بكلمة تثبت لك دافع الفقيد إلى الأخذ بالقومية فى البحث بعد أن دفعته الآثار إلى البحث عن الحقيقة فيها

لاحظ الفقيد حقائق مريرة حفزته إلى البحث وراء الحقيقة أولاً وحملته على أن يقرن بينها وبين القومية أخيراً ... ومن هذه الحقائق ما يأتى :

أولاً : لاحظ أن جميع المصريين يجهلون تاريخهم مع الأسف

ثانياً : أنهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير أشياء ضئيلة مبهمة

ثالثاً : أنهم لا يجدون بعد وقت التحصيل مؤلفات عربية فى هذا التاريخ تجذبهم إليه

رابعاً : إنهم يعرفون عن اليابان فى آسيا وكندا فى أمريكا وعن انجلترا أو عن فرنسا فى ماضيها وحاضرها أكثر مما يعرفونه عن مصر « وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ويمتنع علينا أن نأخذ من أمسنا ليومنا وغدنا. والإنسان الذى يعيش مقطوع الصلة بأمسه كالنبات الغريب ينمو ثم يموت ، وكأنه لم يوجد »

خامساً : إن الناشىء فى انجلترا أو فى فرنسا أو فى ألمانيا « ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع ما فى هذا التاريخ من عظمة وجلال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن وتتولد رغبة فى محاكاة أبطاله وينمو تبعاً لذلك الشعور بالقومية ... الخ »

سادساً : إن الكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا مصر وكتبوا عنها فى ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها فألبسوها لباس الغرابة والخرافة . مثلهم فى ذلك مثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوى لا وجود لها ، وإن هذه الكتابات التى كتبها أمثال هيكاتى دى ميل وهيرودوت وسترابون وديودور الصقلى وكليان الاسكندرى وبلوتارك ، كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ شاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامپوليون الشاب

* * *

وضع الفقيد أمامه هذه الملحوظات الست وخرج منها بأن « الحقيقة » ضائعة فيجب إيجادها ، و « القومية » ضميمة فيجب إنماؤها ، أما « الحقيقة » فهى أن مدنية مصر لم تقم كما اعتقد المؤرخون الأجانب « على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة » بل قامت كما دلل هو « على أساس علمى وخلق صحيح » .

وإلى اللقاء حيث ندرس معاً « بالتطبيق » الطريق التى سلكها فى البحث والنتائج التى خرج بها و « النظافة » العلمية التى حافظته فى أثناء هذا البحث .

محمد السوادى

مؤلفات الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

١ البلاغة العالية فى علم المعانى

إسلوب جديد فى تدريسه لهذا العلم

٢ زعامة الشعر الجاهلى بين امرئ القيس وعدى بن زيد

موازنة جديدة بينهما

٣ الميراث فى الشريعة الإسلامية والشرائع السماوية والوضعية

بحث شرعى مفصل لهذه المواريث وموازنات دقيقة بينها

تطلب هذه الكتب من إدارة مجلة الرسالة بأثمانها مع إضافة أجرة البريد لها ومن عموم المكاتب